الباب الثانى

الحسن الصباح منذ نشأته
حتى إعلانه الاستقلال عن الفاطميين

تطورت حياة الحسن الصباح تطورات عدة ، تدل كلها على حالة التقلقل الدينى ، الذى كان سائداً فى خراسان وفارس فى القرن الخامس الهجرى ؛ فقد نشأ الحسن فى بيت عريق فى التشيع ، ولكنه تعلم فى مدارس السنيين ، وتفقه فى عقائدهم ، ومع ذلك ظل على عقيدته الاثنا عشرية . ويظهر أن صراعا عنيفا بين الإسماعيلية والاثنا عشرية ، كان يسود فارس وخراسان ، ويظهر كذلك أن الغلبة كانت للعنصر العملى منهما وهم الاسماعيلية ، ومن ثم كان انضواء الحسن الصباح الاثنا عشرى تحت لواء الاسماعيلية العمليين ، ثم حمل على كتفيه نشر دعوتهم فى بلاد المشرق ، حيث عين داعيا إسماعيليا .

ولم تكتف رياسة الدعوة الإسماعيلية المحلية فى فارس وخراسان بذلك ، بل أعدته للذهاب إلى مصر . وقد نال هناك إعجاب الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) ، فعينه «حجة» على خراسان ، فحل بتعيينه هذا محل ناصرى خسرو ، غير أنه أخذ يدعو للمستنصر بعد عودته ، فلما مات هذا الخليفة لم يشأ أن يعترف لابنه المستعلى (٤٨٧—٤٩٤ هـ) بالإمامة أو الخلافة ، ونادى بإمامة نزار بن المستنصر (٤٨٨ هـ) ،

وأثارها حربا عاصفة على الفاطميين فى مصر والشام وفارس وخراسان ، واستقل بدعوته الجديدة فى كثير من « بحار » الدعوة القديمة .

١ — نشأة الحسن الصباح

ولد الحسن الصباح فى مدينة الرى ، سنة ٤٤٤ هـ (١٠٥٢ م) ، على ما يقوله بعضٌ ، أو فى سنة ٤٤٥ هـ ، على ما يقوله بعض آخر . وهو الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن الحسن بن محمد الصباح ، ولا شك فى أنه ولد فى بيت عريق فى التشيع ، ولكن الذى نشك فيه ما يدعيه بعضٌ من أنه ينتمى إلى سلالة ملوك التبابعة . ومهما يكن من شىء فإن جماعة من العلماء يرون أن آباء الحسن الصباح وفدوا على الرى من بلاد العراق . على أن هناك جماعة آخرين يرون أن آباء الحسن وأجداده كانوا من أعالى تلك البلاد التى ولد فيها الحسن ، أى أنهم كانوا رازيين .

وسواء لدينا أكان والد الحسن عراقياً أو رازيا ، فقد كان يدين بعقائد الاثنا عشرية ، الغلاة منهم خاصة ، كما كان يدين بالاعتزال والغلو فى التشيع ، وكان التشيع والاعتزال يعتبران فى ذلك الحين وصمة وسبة . وقد أخذت الشكوك تحوم حوله ، لأن والى بلاد الرى السلجوقى ، كان سنيا مغرقا فى سنيته ، كما كان شديدا على الملحدين والمبتدعين . ومن ثم ألجأته صرامة هذا الوالى ، إلى الانكماش والانزواء فى صومعة يتظاهر فيها بالتعبد . وعلى الرغم من هذا كله ، لم تنطل تلك الحيل على أهالى الرى ، وظلوا على عقيدتهم فى إلحاد على بن محمد ، والد الحسن الصباح ؛ فكانوا ينظرون إليه على أنه زنديق مرة ، وكافر مرة أخرى . وهكذا ،

لما ولد الحسن ترعرع فى بيت شيعى ، تحوم حوله الشبهات ، فكان لهذا أثره فى مجرى حياة تلك الشخصية الفذة .

نشأ الحسن الصباح - إذن - اثنا عشريا كأبيه وأهل بيته ، كما نشأ فى جو عاصف ملأه السنيون بالبغض والشك ، ولم يستطع هذا الصبى هو وأبوه أن يؤديا شعائر مذهبهما فى صراحة ويسر . بل كان لابد لهما من اللجوء إلى التقية التى برع الشيعيون جميعا فيها ، فأرسل الوالد ابنه ، الحسن ، إلى مدينة نيسابور [١] ليأخذ العلم على الموفق النيسابورى ، احد نبغاء العلماء السنيين فى ذلك الحين ، وبخاصة فى التفسير والحديث . ومعنى هذا أن تعلم الحسن أصول المذاهب السنية لم يكن مقصودا فى ذاته ، وإنما كان ذرا للرماد فى العيون . ويدل هذا على مدى ما كان يلاقيه الشيعيون المخلصون لمذهبهم ، من العنت على يد السنيين .

ومن الغريب أنه ورد فى كتاب « ساراجوزاشت سيدنا » الذى تناول سيرة الحسن الصباح ، أن نظام الملك ، وزير السلطان ملكشاه وأبيه ألب أرسلان من قبل ، وعمر الخيام ، [٢] الشاعر الفارسى المشهور ، كانا من زملاء الحسن الصباح فى الدراسة ، وأنهم تناولوا العلم جميعا فى وقت واحد ، على العالم السنى الموفق النيسابورى . وقد أوضح الحسن فى هذا الكتيب ميله إلى العلم وحب الاطلاع ، كما أوضح لنا أنه كان شيعيا اثنا عشريا ، وذكر أنه كان تلميذا للنيسابورى ، فى وقت واحد ، مع

---

(١) نيسابور : أنظر المصور ، وهى من أشهر مدن خراسان .

(٢) عمر الخيام : من أشهر شعراء الفرس فى القرن الخامس الهجرى .

عمر الخيام ، ونظام الملك . الذى وزر لطغرلبك ولابنه ألب أرسلان ، ثم للسلطان ملكشاه (+ ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م) .

ويبدو أن تلك القصة مفتعلة من أساسها . وضعت لإظهار نبوغ الحسن ونزعته إلى الزعامة ، فهى تقول : إن الحسن أخذ العهد على رفيقيه بأن يساعد كل من وفق منهم زميليه ، والذى دفع الحسن إلى ذلك ، ما أدركه من نجاح تلامذة الموفق النيسابورى . وقد اهتم نظام الملك بالمسائل السياسية . ووزر لسلاطين السلاجقة الثلاثة ، واهتم الخيام بالعلم والشعر .

وقد قصد الخيام نظام الملك ، وهو وزير فى عهد ألب أرسلان ، فلما عينه على ولاية نيسابور ، رفض ذلك ، وقبل منه معاشا سنويا ضخما طول حياته . أما الحسن الصباح ، فمن قائل : إنه ذهب إلى نظام الملك فى عهد السلطان ألب أرسلان[1] ، ومن قائل : إنه لم يذهب إليه إلا فى عهد السلطان ملكشاه ، لأنه يستطيع أن ينال كل ما يرغب فيه من ملك شاب ، مثل السلطان ملكشاه ، على حين لا يستطيع تحقيق هذا من ملك مجرب ، مثل ألب أرسلان . والمهم أن الحسن الصباح حين ذهب إلى نظام الملك ، ذكره بالعهد الذى قطعه على نفسه ، وقال له : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها[2] » . فلما عرض عليه نظام الملك أن يوليه على إحدى الولايات الإسلامية ، أبى إلا الدخول

---

(١) المستوفى : تاريخ جوزيدة (الترجمة) ، جـ ١ ص ١٨٧

(٢) سورة النحل ، آية ٩١ .

فى خدمة السلطان ، وكان غرضه من ذلك . قلب نظام الملك ، والاستبداد بالوزارة دونه (١) .

ولا نستطيع أن نوافق على صحة هذه القصة ، لاختلاف السن بين الحسن ونظام الملك ، فإن الحسن الصباح ، ولد فى سنة ٤٤٤هـ أو ٤٤٥ هـ فى الوقت الذى كان فيه نظام الملك قد جاوز الثلاثين بكثير (٢) . والمعروف أن نظام الملك أتم تعليمه فى وقت مبكر ، ودخل الحياة السياسية فى وقت مبكر كذلك ، أى فى نفس الوقت الذى ولد الحسن الصباح فيه أو قبله بكثير (٣) .

ولذلك نستطيع أن ننفى من تلك القصة شطرها الأول ، وهو تلمذة الحسن مع نظام الملك والخيام ، ولا ننفى شطرها الثانى ، وهو توظف الحسن فى قصر السلطان ملكشاه ، لأنه لا يبعد أن يكون

---

(١) Dozy Essai Sur l'Hist. de l' Islamisme, p. 298.

(٢) Browne : Lit. Hist. of Persia vol. ii, p. 191

لأنه ولد فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ، ولو فرضنا أن الحسن الصباح ذهب ليتعلم وهو فى الثانية عشرة من عمره ، فانه لا يعقل أن يكون نظام الملك تلميذا وقتئذ ، لأن عمره سيكون ٤٧ سنة تقريبا ، ولا يعقل أن يخضع من كان عمره ٤٧ سنة ، إلى طفل لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره .

(٣) أحمد بن عمر النظامى السمرقندى : كتاب جهار مقاله (ليون سنة ١٩٠٩) ، ص ٢١٧ .

الحسن قد دخل فى خدمة السلطان ملكشاه أو أبيه ، وفعل ما فعل ، كما سنرى (١) .

نستنتج من هذا كله أن الحسن الصباح كان تلميذا مع التلاميذ السنيين ، وموظفا مع الموظفين السنيين كذلك ، غير أنه كان شخصا موهوبا . لذلك لا نستبعد عليه أن يفكر فى الوزارة نفسها ، ويسعى لقلب نظام الملك . ويظهر أن الحسن الصباح اشتغل فى ديوان السلاجقة فى عهد السلطان ألب أرسلان ، ثم فى عهد ابنه السلطان ملكشاه ، وكان غرضه ، كما سبق القول ، أن يصل إلى الوزارة ، ولم يستطع بالطبع أن يحاول تلك المحاولة الجريئة ، فى عهد السلطان المجرب ، ألب أرسلان ، لصغر سنه هو ، ولأنه ، كما يقول فون همر (٢) ، لا يستطيع أن يحقق أمنيته هذه على يد رجل مجرب كألب أرسلان ، وإنما يستطيع تحقيقها كاملة فى عهد ابنه الشاب ، السلطان ملكشاه .

والحق أن نفوذ الحسن الصباح ، فى ديوان السلاجقة كان عظيما حقا ، وبخاصة فى عهد السلطان ملكشاه ، الذى كان يستشيره فى كل شىء ، ويتباحث معه فى جميع الأمور ، كما كان الحسن نفسه يخبره بكل شئون

(١) والغريب حقا أن ترد هذه القصة فى كتاب « سارا جوزشت سيدنا » ، إلا أنه لا يبعد أن تكون مدسوسة على الحسن نفسه : وأن من وضعها خلط بين نظام الملك وبين أنوشروان بن خالد ، وزير السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، الذى ألف كتابا ذكر فيه أنه تعرف فى شبابه ، وتناول العلم مع رجل من الرى ، كان رحالة كاتبا ، ولا يبعد أن يكون هذا الكاتب هو الحسن الصباح ، على ما ذهب العلامة براون إليه ، فى كتابه Lit. Hist.of Persia vol. ii, p.192 ، خصوصا وأن مولد أنوشروان كان فى سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) ، ومن ثم يمكن أن يكون هذا الرجل زميلا الحسن الصباح فى صباه .

(٢) Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 8

الديوان ، وكان بدهائه يلقى كل لوم ، مهما كان صغيرا ، على الوزير نظام الملك . على أن هذه السياسة النفعية الهدامة قادته إلى حتفه بظلفه ، فأثارت عليه حنق الوزير نظام الملك ، الذى أخذ يسعى من جانبه فى إقصاء الحسن الصباح عن ديوان السلاجقة ، حتى طرده منه ، فأزال بطرده ذلك الكابوس المخيف الذى كان يقض عليه مضجعه .

ويعتبر خروج الحسن الصباح من قصر السلطان ملكشاه ، من أكبر الأحداث فى تاريخ هذا الرجل ، بل فى تاريخ الإسماعيلية فى تلك البلاد ، وإذن ما السبب الحقيقى الذى حدا السلطان السلجوقى إلى طرده من ديوانه ؟ تكاد تجمع المصادر على أن طرده يرجع إلى مؤامرة دبرها له نظام الملك ، فإن السلطان ملكشاه ، حين طلب من نظام الملك أن يقدم له تقريرا عن ميزانية دولته ، عجز هذا الوزير عن تقديمه بالسرعة التى كان السلطان يرغب فيها ، وأظهر لمليكه أن هذا التقرير لا يمكن الفراغ منه إلا بعد عامين كاملين ، وهنا يتجلى ذكاء الحسن الصباح ودهاؤه ، فقد تحدى الوزير نظام الملك ، وتعهد للسلطان بانجاز التقرير فى أربعين يوما لاغير ، على أن يجعل السلطان جميع سجلات الدولة وكتّابها تحت يديه .

وقد أتم الحسن التقرير فعلا ورتبه ، فى المدة المعينة ، فهبت نظام الملك لهذا النشاط الفذ ، وخاف على مركزه وهيبته من الضياع ، لذلك أرسل كاتبه إلى كاتب الحسن الصباح ، وتمكن من إرشائه ، وإحضار التقرير . ولما لم تكن الأوراق مرتبة ترتيبا عدديا ، فان نظام الملك ألقى بها فى وجه كاتب الحسن ، مدعيا أنها خرافات ، ولما تناثرت الأوراق أخذ

الكاتب يلتقطها فى غير نظام. فلما حان وقت تقديم السجل، وأدرك الحسن ما حل به، وهو يقدمه إلى السلطان، تعثر وتلعثم، فانتهز نظام الملك تلك الفرصة، وأخذ يرمى الحسن بالإهمال والجهل قائلا: «إذا كان المرء جاهلا ادعى أنه يستطيع إتمام التقرير فى أربعين يوماً، على حين يعجز العلماء عن إتمامه قبل عامين». فحنق السلطان على الحسن الصباح، وكاد يقتله، لولا حبه له، وتمكن الحسن أخيرا من الفرار، وتوغل فى الإلحاد. وكان ذلك فى سنة ٤٦٤ هـ = ١٠٧١ م [١].

على أننا لا نستبعد أن يكون خروج الحسن من قصر السلطان ملكشاه، إنما كان لإختلافه فى العقيدة مع الوزير السنى نظام الملك، فهذا الحسن الصباح، يدين بالمذهب الإسماعيلى، الذى كان قد اعتنقه قبيل طرده من ديوان السلاجقة. ويقال: إنه اعتنق هذا المذهب ولم يتجاوز السابعة عشرة، وطرد من ديوان السلاجقة، وعمره تسع عشرة سنة، وفى ذلك يقول المستوفى [٢]: «إنه لما أصبح الحسن حاجبا للسلطان، ابتدع لهيب الحقد والعداء الدينى بينه وبين نظام الملك، لأن نظام الملك سنى وذلك شيعى».

وإذا علمنا أن نظام الملك كان يعمل دائما على إقصاء غير السنيين، من الشيعة وسواهم، عن وظائف الحكومة، وكان يفخر دائما بذلك، إذا علمنا هذا لا نستبعد أن يكون طرد الحسن من ديوان السلاجقة،

---

(١) المستوفى: تاريخ جوزيدة، جـ ١ ص ٤٨٨.

(٢) المصدر نفسه، جـ ١ ص ٤١٠.

إنما كان بعد أن تأكد نظام الملك من تضلع هذا الرجل فى عقائد المذهب الإسماعيلى ، ولا يبعد أن يكون نظام الملك قد أوغر قلب السلطان ملكشاه على الحسن بسبب ذلك أيضا . على أن هناك (أمراً) آخر نراه فى تعقب والى خراسان السنى للحسن الصباح ، عقب خروجه من قصر السلطان ، واتهامه إياه بالاتصال بدعاة الفاطميين (١).

والحق أن الحسن الصباح كان داعيا للفاطميين وهو فى قصر السلطان السلجوقى ، وبعبارة أخرى كان الحسن داعيا إسماعيليا ، ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره ، فلما خرج من ديوان السلاجقة ، انكب على الدعوة الإسماعيلية ، فأضحى علما من أعلام دعاتها . ونستطيع إذن أن نقول : إن طرد الحسن الصباح من حكومة السلاجقة ، إنما كان لاشتهاره بالتفانى فى سبيل المذهب الإسماعيلى ، واتصاله بدعاة الفاطميين ، وكذلك لظهوره أمام السلطان السلجوقى بمظهر المهمل ، الذى لم يهتم بأوامر رؤسائه ، فكان هذا كله ، من أكبر الدوافع فى طرده من ديوان السلاجقة .

٢ — اعتناق الحسن المذهب الإسماعيلى

نشأ الحسن الصباح اثناعشرى المذهب ، وتضلع فى علوم مذهبه ، وتفنن فى طرق النقاش فيها ، ويظهر أنه وصل إلى أعلى درجات حدود الدعوة الاثناعشرية . ويظهر كذلك أن الصراع كان عنيفا ، فى فارس وخراسان ، بين أنصار المذهب الاثناعشرى وأنصار المذهب الإسماعيلى ،

---

(١) ابن خلدون : العبر (مصر سنة ١٢٨٤هـ) ، جـ ٤ ص ٩٤ .

ولذلك كان الحسن كثير النقاش مع الدعاة الإسماعيلية ، وكان فى قرارة نفسه يعترف لهؤلاء الدعاة بالمقدرة الكلامية والفكرية ، كما كان يعتقد أن الخليفة المستنصر لم يكن غير فيلسوف على رأس جماعة من الفلاسفة ، الأمر الذى يدل على أن الدعوة الإسماعيلية فى بلاد فارس ، كانت تميل إلى الناحية العلمية الفلسفية ، وأن الدعاة الإسماعيلية هنالك ، كانوا من العلماء أو الفلاسفة .

وكان تأثير الداعى الإسماعيلى « أمير ضَرَّاب » فى الحسن الصباح عظيما ؛ فقد شكك فى عقيدته الاثناعشرية ، وقربه من المذهب الإسماعيلى ، حتى أنه حين مرض الحسن ذات مرة ، ندم على امتناعه عن اعتناق هذا المذهب ، وما أن شفى حتى أخذ فى تعلمه على يد الداعيين الإسماعيلين ، أبى نجم السراج ، الذى أخذ يشرح للحسن عقائد الإسماعيلية شرحا مستفيضا ، حتى امتلأ قلبه بحب المذهب الإسماعيلى ، وعرف أسراره ، ثم الداعى مؤمن Moumin وكان من دعاة عبد الملك بن عطاس (١).

وقد تعمق الحسن الصباح فى معرفة مبادىء المذهب الإسماعيلى ، والإلمام بدقائقه ، حتى طلب من الداعى الإسماعيلى مؤمن أن يأخذ عليه العهد ، ولكن هذا الداعى رفض ذلك ، مدعياً أن مرتبته أقل بكثير من مرتبة تلميذه الحسن ! غير أن الحسن ما زال به ، حتى أخذ عليه العهد .

---

(١) مما يدل على احتدام المناقشة بين الاثناعشرية والاسماعيلية فى شرق المملكة الاسلامية ، ومما يدل أيضا على مقدرة الدعاة الإسماعيلية ، وتفوقهم فى الجدل على أقرانهم الاثنا عشرية ، ولا غرو فقد كان لمدارس القاهرة أثرها فى تخريج جماعات أوقفوا أنفسهم على الجدل والمقارعة والتأثير فى سامعيهم .

وفى سنة ٤٦٤هـ (١٠٧١ م) ، وصل رئيس الدعوة الإسماعيلية بالعراق ، عبد الملك بن عطاش ، إلى أصفهان ، فسر بالحسن وأكرمه ، ولا غرو فقد قويت الدعوة فى فارس بانضمام هذا الزعيم الموهوب إليها ، ولذلك اتخذه عبد الملك بن عطاش ـ مساعداً له ، وبعبارة أخرى جعله داعيا للإسماعيلية فى تلك البلاد ، ووثق به . فأمره بالذهاب بعد ذلك إلى مصر ليحظى بالإمام المستنصر (١) .

ويعتبر اعتناق الحسن الصباح المذهب الإسماعيلى ، (قبل سنة ٤٦٤هـ) حدثا كبيراً فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية بالمشرق ، بل فى تاريخ الاثنا عشرية فى تلك البلاد . لأنه باعتناقه هذا المذهب ساعد على إضعاف مذهب الاثنا عشرية هناك ، وفى الوقت نفسه ساعد على رواج المذهب الإسماعيلى . فقد حمل الحسن على كتفيه مهمة ترويج مذهبه الجديد ، وعينه ابن عطاش ، رئيس الدعوة بالعراق ـ العربى والعجمى ـ داعيا على أصفهان (٢) . ويظهر أن ذلك التعيين حدث قبيل خروج الحسن من وظيفته فى ديوان السلاجقة بأصفهان ، فكان ، والحالة هذه ، داعيا فاطميا ، وموظفا فى قصر السلاجقة السنيين فى الوقت نفسه .

ويظهر أن الحسن الصباح ، ظل يقوم بالدعوة ، منذ أن اعتنق المذهب الإسماعيلى ، فى نحو سنة ٤٦٢ هـ ، حتى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦٩ م) ، ولم يكن يستقر فى مكان فى تلك الفترة : فبينما تراه فى أصفهان تارة ، إذا بك

---

(١) الجوينى : جهان جوشا — ترجمة ديفريمرى فى Essai pp. 65 — 6 ،

(٢) Browne : Lit. Hist. of Persia vol. ii, p. 203

تراه فى بلاد الرى تارة أخرى . وقد تعرض الحسن فى تلك الفترة من حياته لهجمات عنيفة . كان يشنها عليه أبو مسلم ، صهر نظام الملك ، الذى كان واليا على الرى .

ويصح الذهاب إلى القول بأن رئيس الدعوة فى المشرق «ابن عطاش» كان يمتحن الحسن ، ويدرس سلوكه ، فلما اتضح له أنه شخص موهوب ، عمل على ترحيله إلى مصر ، لينهل أصول الدعوة من مناهلها الحقة بمدارس القاهرة .

والذى نستطيع استنتاجه من ذلك ، ما ذهبنا إليه من قبل ، وهو أن الحسن الصباح كان فى خدمة السلطان السلجوقى ، ألب أرسلان ، ثم السلطان ملكشاه ، وهو يدين بالمذهب الإسماعيلى ، وأنه كان قبل اعتناقه المذهب الإسماعيلى على شىء كبير من الشهرة المذهبية ، حتى رفض داعى الإسماعيلية Mounin ، مؤمن ، أن يعطيه العهد لسمو مكانته . وشىء آخر جدير بالاعتبار ، هو أن سيلا من دعاة الإسماعيلية ، كان يغمر بلاد فارس وخراسان ، وأن رئيس الدعوة هناك ، كان موطنه بلاد العراق ، وكان يزور البلاد الواقعة تحت نفوذه من آن لآن ، وكان كذلك حلقة الاتصال بين الفاطميين فى مصر وأشياعهم فى خراسان وفارس . كما كان يتمتع بحق تعيين الدعاة الذين يثق بهم ، ثم ينتخب من يراه صالحا جريئا موهوبا ، للذهاب إلى القاهرة ، للتعمق فى أصول المذهب الإسماعيلى هناك .

وأهم من ذلك كله ، ضعف المذهب الاثنا عشرى فى خراسان وفارس أمام المذهب الإسماعيلى . يدل على ذلك اعتناق كثير من

المبرزين فيه المذهب الإسماعيلى . حيث يستطيع هؤلاء أن يحققوا مآربهم كاملة فى ظله ، فلا يبعد والحالة هذه أن يكون اعتناق الحسن الصباح المذهب الإسماعيلى، راجعا إلى رغبته فى إشباع ميوله وأطماعه ، إذ يستطيع فى ظله ، أن يدعو لنفسه تحت ستار الدعوة للإمام الإسماعيلى، الظاهر أو المستور . وهذا ما نستطيع إدراكه من سلوك الحسن الصباح ، فقد استطاع أن يكون على رأس جماعة تخلص له ، ويدعى لها أنه « حجة » الإمام المستور من أبناء نزار بن المستنصر .

والذى لا يمكن تصديقه ما يدعيه بعض من أن الحسن الصباح كان أستاذاً لناصرى خسرو[١] ، كما لا يمكن تصديق ما ذهب بعض آخر إليه من أن الحسن تلميذ ناصرى خسرو لا أستاذه [٢] . فاننا نعلم أن الخليفة المستنصر الفاطمى ، عين ناصرى خسرو حجة على خراسان ، فى سنة ٤٤٣ هـ أى قبل مولد الحسن الصباح بسنة واحدة ، ومن ثم لا يعقل أن يكون لحسن الصباح أستاذا لهذا «الحجة» ، أو حتى تلميذا له . أضف إلى ذلك ، أن مراجعنا الكثيرة تذهب إلى القول بأن الحسن الصباح أخذ أصول المذهب الإسماعيلى عن ابن عطاش [٣] ودعاته ، ولا يبعد أن يكون

---

(١) كتاب مستطاب در حقيقت مذهب إسماعيلى ، ص ١٠ .

(٢) حيث يقول براون Lit. Hist. of Persia vol. ii, p. 251 : إن كتاب سارجوازشت سيدنا يؤكد أن الحسن كان تلميذا لناصرى خسرو .

(٣) كان عطاش من كبار علماء المذهب الاسماعيلى ، ألف الكتب الكثيرة فى مناصرة هذا المذهب، وألف رسالة فى الدعاء له ، أسماها العقيقية (ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ورقة ١٣)

ابن عطاش تلميذا لناصرى خسرو ، فكأن الحسن الصباح أخذ أصول المذهب عن ناصرى خسرو بطريق غير مباشر .

نستنتج من هذا كله أن الدعوة الإسماعيلية كانت رائجة فى خراسان وفارس، عند ظهور الحسن الصباح ، وأن هذا الرجل الفذ ، استغلها خير استغلال ، فى تدعيم نفوذه ، وتقوية شأن جماعته ، وأن الدعوة الشيعية الاثنا عشرية كانت ضعيفة هزيلة هناك ، فلم تستطع الصمود أمام تيار الدعوة الإسماعيلية الجارف ، وأن دخول الحسن المذهب الإسماعيلى ، غير أسلوب حياة هذا الزعيم من النقيض إلى النقيض ، فتحمس للمذهب الجديد ، وبدرت منه بوادر هذا التحمس وهو موظف فى قصر السلاجقة ، فأثار بتحمسه سخط السنيين عليه ، وانتباههم إليه ، فما زالوا به يضعون العراقيل فى طريقه ، حتى طردوه ، وكادوا يفتكون به .

ولقد عمل الحسن الصباح بعد اعتناقه المذهب الإسماعيلى ، وإقالته من وظيفته ، على أن يتفانى إلى أقصى حدود التفانى فى الإخلاص للمذهب الإسماعيلى ، فأثار بعمله هذا انتباه رؤساء الدعوة الإسماعيلية فى فارس وخراسان ، وما زال يجد فى نشر الدعوة حتى عملوا على إرساله إلى القاهرة ، ليرتشف أصول المذهب الإسماعيلى ، من مدارسها ودعاتها وأئمتها .

٣ الحسن الصباح فى مصر

عول الحسن الصباح على قصد مصر فى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، فهل كان ذلك بوحى من الخليفة الفاطمى ـ المستنصر ـ نفسه ؟ أو أن رياسة

الدعوة بالمشرق ، هى التى مهدت لهذا الرجل سبيل الوصول إلى مصر ؟ أو أن الحسن الصباح هو الذى رغب فى تلك الرحلة من تلقاء نفسه ؟ يظهر أن عبد الملك بن عطاش ، رئيس الدعوة بالمشرق ، هو الذى مهد للحسن الصباح ، كى يذهب إلى مصر ، ليستزيد من علوم المذهب الإسماعيلى ، ويتلقف شئون الدعوة العملية من ينبوعها الأساسى . ويظهر أيضا أن رياسة الدعوة فى « البحار » المختلفة ، كانت تعنى بتخريج جماعة من أذكياء الدعاة ، ثم تعمل على إرسالهم إلى القاهرة . وقد رأينا أن القاهرة جذبت إليها غير الحسن الصباح كثيرين ، فلقد قصد إليها أحمد حميد الدين الكرمانى ، وكثير من دعاة الدرزية فى عهد الحاكم ، وكذلك قصد إليها المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، ثم ناصرى خسرو فى عهد المستنصر ، وكل من هؤلاء الدعاة كان علما من أعلام الدعوة الإسماعيلية . فكان قصد الحسن مصر تنفيذا لسياسة مرسومة ، رسمتها رياسة الدعوة المركزية والمحلية ، ودرج عليها الدعاة منذ القديم .

خرج الحسن الصباح من الرى ميمما نحو مصر فى سنة ٤٦٧ هـ ، وقصد إلى أصفهان ، وظل بها حتى سنة ٤٦٩ م ، بجانب رئيس الدعوة عبد الملك ابن عطاش ، فمهد هذا له الطريق إلى القاهرة . وكانت خطة سيره آية فى الدقة والإحكام ، حتى لا يقع فى أيدى السنيين ، فتزيى بزى التجار ، ثم خرج من أصفهان فى سنة ٤٦٩ هـ ، ومر بآذربيجان وميافارقين ، ثم الموصل وسنجار والرحبة ، ثم اتجه إلى دمشق فصيدا وصور ثم عكا . ومعنى ذلك أن الحسن قطع المسافة من أصفهان إلى عكا عن طريق البر ، ولكنه ركب

---

(١) انظر الصور .

البحر بعد عكا ، حتى وصل إلى مصر فى سنة ٤٧١ هـ . وقد استطاع أن يتعرف ـ وهو فى طريقه ـ على كثير من الإسماعيلية ، الذين عاونوه خير معاونة ، وكانوا يتصلون به سرا . وهكذا وصل الحسن مصر « فى زى تاجر أو فى زى نجار »[1] .

والذى يلفت النظر حقا ، اهتمام زعماء الدعوة فى مصر بالحسن الصباح . ونعتقد أن ابن عطاش كان على صلة برياسة الدعوة فى مصر ، عن طريق الحمام الزاجل ، ولابد أنه أخبرهم عن حقيقة شخص الصباح ، ومدى تفانيه فى نشر الدعوة الإسماعيلية ، ومدى ما لاقاه من اضطهاد على يد السلاجقة . ومن ثم رحب به الخليفة المستنصر نفسه ، على الرغم من أنه لم يقابله شخصيا ، كما رحب به داعى الدعاة ، وكثير من رجالات الدعوة المبرزين فى مصر ، وخصصت له الحكومة الفاطمية فى مصر منزلا يعيش به . ولنترك الحسن الصباح نفسه يحدثنا عن ذلك فيقول : « إن مولاه المستنصر ، كان يحسن معاملته ، ويظهر عطفه عليه ، وحبه له ، وذلك على الرغم من أنه لم يقابله شخصيا مرة واحدة . ولم يكن المستنصر يتكلم عن الحسن إلا بكل إجلال وإكبار ، حتى أن موظفى القصر اعتقدوا أنه سيعين وزيراً للمستنصر[2] » .

وقد استمر الحسن الصباح فى مصر عاما ونصف عام (٤٧١ هـ — ٤٧٢ هـ) ، استطاع أن ينكب فيها على علوم الإسماعيلية ومعارفهم ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ١٨ .

(٢) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 78

وأن يدرس أصول المذهب الدرية دراسة وافية ، سواء أكان ذلك فى دار الحكمة ، أو فى غيرها من مجالس الدعوة ، غير أنه لم يعش قرير العين فى القاهرة . فقد قامت المنازعات بينه وبين الوزير العظيم - بدر الجمالى - (٤٨٧ هـ) وأنصاره ، مما أدى إلى الزج به فى السجن بمدينة دمياط ، بل لقد رأى الوزير فى وجوده بمصر خطراً على كيانه ، ومن ثم عمل على نفيه إلى بلاد المغرب ، غير أن الريح ألقت به على سواحل الشام ، ففر منها إلى بلاده .

وترينا هذه المعاملة القاسية ، مدى ما كان يلاقيه الإسماعيلى المخلص لمذهبه وإمامه من عنت ، على يد رجال الحكومة النفعيين بمصر ، الذين كانوا ينظرون إلى الدعوة الإسماعيلية ورجالها ، نظرة احتقار وامتهان . وكان بدر الجمالى وأبناؤه من بعده من أكثر الناس كراهية للدعوة الإسماعيلية ، ولم نذهب بعيداً ؟ وقد لقى المؤيد الشيرازى من رجال الحكومة وأعوانهم أكثر مما لقيه الحسن الصباح .

وإن خروج الحسن الصباح من مصر على هذا الشكل الروائى المحزن ، ليحدونا إلى بحث عوامل غضب الحكومة الفاطمية على ضيفها المخلص . وقد كفانا الحسن الصباح مؤونة هذا بنفسه ، فأخبرنا أن سبب طرده من مصر ، يرجع إلى أنه كان من أنصار الأمير الإمام نزار بن المستنصر . وقد آلم تحيزه لنزار أمير الجيوش بدر الجمالى وحزبه ، فكان هذا من أسباب الاحتكاك المتصل بين الحسن والوزير العظيم [١] .

---

(١) Blochet : Le Missianisme, p. 109.

وقد أوضح رشيد الدين ، فى كتابه جامع التواريخ، تلك الحال، فقال: حدث فى ذلك الوقت تعيين ولى العهد فى مصر ، فاختار المستنصر ابنه نزارا ، وكان بدر الجمالى يحبذ تعيين المستعلى . وناصر الحسن الصباح التعيين الأول ، فغضب عليه بدر الجمالى ، ولم يرض بما كان المستنصر يبديه للحسن من احترام ، فعمل على سجنه ، ثم طرده من مصر (١). ويقول بلوشيه(٢) ، فيدعى أن المستعلى، الذى كان تعيينه بعد تعيين نزار ، كان على رأس جماعة من الحانقين على الحسن الصباح، ومعهم أمير الجيوش بدر الجمالى ، ولكن المستعلى كان فى ذلك الوقت طفلا لم يتجاوز الرابعة من عمره . فلم يكن إذن على رأس جماعة تحنق على نزار وعلى الحسن الصباح ، وإنما الذى كان على رأس هذه الجماعة حقا ، هو بيت بدر الجمالى ، جد المستعلى لأمه .

ألسنا نرى فى سلوك الحسن الصباح شيئا كبيرا من الدهاء ؟ فقد مهد الأمور لنفسه ، وأظهر التفانى للمذهب الإسماعيلى ومبادئه . فظهر أمام الإسماعيلية جميعا بأنه يأخذ بناصر الدعوة لا بناصر الدولة . ومن ثم انضوى تحت لواء نزار وأنصاره جميع القائلين بإمامته ، وجميع القائلين بصحة التعيين الأول وبطلان التعيين الثانى ، وهؤلاء هم خلاصة الإسماعيلية. وهذا كله مصداق ما قيل فى الحسن الصباح من أنه كان نهازا للفرص، يسعى دائما إلى الاصطياد فى الماء العكر. to fish in the troubled water .

---

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. ii, p. 203

(٢) Blochet ; Le Missianisme, p. 109

على أننا لا ننكر بأن حنق بدر الجمالى ورجال حكومة الدولة الفاطمية على الحسن الصباح ، إنما كان مبعثه ذلك الحقد الدفين ، الذى يكنه رجال الدولة الحكوميون لرجال الدعوة المخلصين. ولا نستبعد على الحسن أن يكون قد أدرك بثاقب نظره قرب نهاية الدعوة فى مصر على أيدى رجال الحكومة النفعيين ، فهب فى وجه النفعية ، ونادى بالثورة على هذه السياسة الخطيرة ، التى قد تودى بالدعوة والدولة معا. ولا ننكر كذلك بأن رجال الدولة فى مصر ، عز عليهم ما رأوه من احترام المستنصر لهذا الداعى الفارسى ، وخاف كبار الموظفين ، كل على وظيفته ، واعتقد كل منهم أن الحسن سوف يحل محله فيها ، فكونوا جميعا جبهة قوية تكاتفت فى طرد الحسن الصباح من مصر .

وقد نسأل متى تم تعيين المستعلى ونزار ؟ يظهر أن هذا التعيين الخاص بالمستعلى ، إنما حدث فى المدة التى استقر بها الحسن فى مصر (٤٧١ — ٤٧٢ هـ)، أما نزار فلا بد أن يكون تعيينه قبل ذلك . غير أننا لا نعرف على وجه التحديد متى كان هذا التعيين ، لكن النزارية يرون أن تعيين المستنصر نزارا لم يعجب بدرا الجمالى وأنصاره ، وأن ذلك الوزير ما زال بالخليفة المستنصر ، حتى نقض التعيين الأول وعين ابنه الأصغر ، المستعلى ، وكان حفيدا لبدر الجمالى ، فآلم ذلك التعيين الثانى جماعة النزارية الأوائل ، الذين كانوا يلتفون حول نزار وقتئذ واعتبروه خروجا على أهم مبادىء المذهب الإسماعيلى ، وافتئاتا من رجال الحكومة على رجال الدعوة ، خصوصا وأن بدرا الجمالى وابنه الأفضل ، كانا يحقدان على نزار ، ويريان إبقاء العرش فى بيت المستعلى ، الطفل

الصغير ، لقرابته منهما أولا ، ولصغر سنه ثانيا ، لكى يصبح ألعوبة فى أيديهما .

نعم ! أنكر الحسن الصباح ذلك ، على الوزير بدر الجمالى وابنه الأفضل ، محتجا بأن التعيين الأول ، وهو تعيين نزار ، هو المعمول به عندكافة الإسماعيلية ، وأن التعيين الثانى ، وهو تعيين المستعلى ، لا أساس له فى المذهب ، وهذه الحجة قوية ، لأنها حجة الإسماعيلية الرئيسية ، التى يتذرعون بها فى الرد على خصومهم الاثنا عشرية ، أنصار موسى الكاظم ، أوضح الحسن الصباح ذلك بقوله : كان لأمير الجيوش الكلمة العليا فى البلاد ، كما كان نفوذه قويا على الخليفة المستنصر نفسه . هذا إلى أنه كان والد زوجة المستعلى ، الابن الثانى للمستنصر . والمستعلى هذا هو الذى أعلن الخليفة المستنصر بأنه سوف يليه بعد موته ، غير أن ذلك الإعلان كان الثانى من نوعه ، وإنى مستندا على المبادىء الأساسية المذهب الذى أعتنقه ، أدعو لنزار (١) .

وكل ما ورد على لسان الحسن الصباح صحيح ، إلا فى الادعاء بأن بدرا الجمالى كان والد زوجة المستعلى ، لأن المستعلى ولد فى ٢٠ من المحرم سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) ؛ وكان الحسن فى مصر سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) ، فعمره والحالة هذه أربع سنوات ، ولا يعقل أن يكون

---

(١) جهان كوشا : الجوينى . ترجمة دفريمرى فى

Essai sur l'Hist. des Ismaeléens, p 67.

زوجا لابنة أمير الجيوش، كما أن المراجع الكثيرة تقول : إن بدرا الجمالى جد المستعلى لأمه لا جده .

ونستطيع أن نقول ـ حسب ما ذهب النزارية إليه ـ إن المستنصر كان قد عين نزارا قبل تعيين المستعلى، وإن المستنصر نفسه صرح بذلك للحسن الصباح ، ومعنى هذا أن الحسن حين ثار على المستعلى وجده بدر الجمالى ، وخاله الأفضل وحزبهم جميعا . إنما كان يحافظ على أوامر الخليفة ومبادىء المذهب الإسماعيلى . يقول النويرى (١) : « ودخل الحسن على المستنصر ، وخاطبه فى إقامة الدعوة ببلاد العجم ، فأذن له ... وادعى أنه قال للمستنصر : من إمامى بعدك ؟ فأشار إلى نزار فمن هناك سموا بالنزارية » ، ويقول ابن واصل (٢) : « إن الحسن الصباح قدم على المستنصر ، وطلب منه أن يكون داعيا له ببلاد العجم ، فأجابه إلى ذلك ، فسأله : من الإمام بعده ؟ فذكر أنه قال: إنه ولده نزار ... فمضى الحسن إلى بلاد العجم ، فدعا للمستنصر ، وبعده لولده نزار ، وبث دعوة الباطنية هناك » .

ويرى إيفانو (٣) أن هذه الحكاية مخترعة من أساسها ، وأن الحسن الصباح إنما اخترعها كى يبرهن على صحة مذهبه ، وأننا إذا علمنا أن

---

(١) نهاية الأرب (مخطوط) ، ج ٢٨ ورقة ٧٥ .

(٢) مفرج الكروب (مخطوط مصور بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٦٠٥) ، ج ١ ورقة ١٢٦ .

(٣) Ivanow. Kalami Pir. (Intro.), p. xx.

الخليفة المستنصر الفاطمى لم يقابل الحسن الصباح مرة واحدة ، وأن الموظفين بالقصر الخافى فى مصر، أهملوه إهمالا تاما ، وأن الحسن نفسه كان شابا طموحا لطموحا لا حد له ، وكان يؤمل أن يرى فى مصر غير ما رأى ، إذا علمنا ذلك كله، نستطيع أن نقول : إن آلام ذلك الشاب قد تزايدت ، بسبب فشله فى مصر ، وشعوره بنفورهم منه ، فأراد أن ينتقم لآلامه باختراع تلك القصة ، كى يدعو لنزار ، عدو أمير الجيوش اللدود .

من هذا كله نرى أن نفوذ المستنصر فى دولته لم يكن شيئا مذكورا، بجانب نفوذ بدر الجمالى وأهل بيته . ولا نستطيع أن نفسر تغاضى هذا الخليفة عن الحسن الصباح ـ تابعه المخلص الوفى ، بأن ما ناله إنما كان بأمره هو ، أو أنه على الأقل ، كان راضيا عن تصرف الوزير مع الحسن ويظهر أن المستنصر كان يقنع ، مع وجود بدر الجمالى ، من الخلافة باسمها ، فترك أمور الدعوة وأمور الدولة كلها فى يد هذا الوزير ، الذى استبد بكل شىء . ولم يعد يأبه للخلفاء ولا للأمراء ، وإنما كان همه التمتع بالنفوذ المطلق لاغير ، حتى أن المستنصر ، على الرغم من حبه الحسن الصباح وعطفه عليه ، لم يستطع أن يقابله مرة واحدة ، أو يأمره بالمثول بين يديه [1]. فعل ذلك خوفا من وزيره الجمالى .

وكذلك لما قبض الوزير على الحسن الصباح وسجنه ، لم يستطع هذا الخليفة الدفاع عنه ، وقد شعر الناس بأن هذه الإهانة إنما وجهت إلى الخليفة وإلى الحسن الصباح معا . والدليل على ذلك، أنه لما سجن الحسن

---

(١) Dozy : Essai Sur l'Hist. de l'Islamisme, p. 301

بدمياط ، وسقط أحد جدران القلعة التى كان مسجونا بها مصادفة ، اعتقد القوم أن هذه معجزة من المستنصر ومن الحسن معا ، وما كان يصح للناس أن يعتقدوا ذلك لو كان المستنصر راضيا عما حل بتابعه المخلص ، الحسن الصباح .

نعود فنقول : إن ما فعله الوزير ـ بدر الجمالى ـ مع الحسن الصباح ، يعتبر محنة أصابت الدعوة الفاطمية فى صميمها ، ولكنه يعتبر نصرا مؤزرا للدولة ورجال حكومتها ، ولا غرو فقد أصبح الإمام الظاهر ـ الخليفة المستنصر ـ ألعوبة فى يد الوزراء العظام ، الذين جمعوا السلطة كلها فى أيديهم ، وأصروا على أن يكون مركز الدعوة أقل شأنا من مركز الدولة ، وأن لا يتركوا لرجال الدعوة فرصة يحاولون بها الوصول إلى الزعامة أو السلطان . وهذه السياسة الخطيرة كانت من العوامل التى عجلت بسقوط الفاطميين[1].

وعلى الرغم من هذا كله ، أفاد الحسن الصباح من رحلته فائدة كبيرة ، فقد استطاع أن يدرس خلال تلك المدة التى مكثها فى مصر ، أصول المذهب الإسماعيلى ، وأن يلم بكثير من أسراره ومبادئه ، فقد كان دائم الاتصال برجال الدعوة وأساتذتها ، وبمدارس الدعوة ومجالسها ، كما كان يتصل بالخليفة المستنصر عن طريق رجال الدعوة ، ويعرف منه أصول المذهب ومبادئه عن طريقهم كذلك . يقول ابن ميسر[2] : « وسأل الحسن المستنصر عن مسائل على مذهب الإسماعيلية ، فأجابه عليها بخطه » .

---

(١) أنظر كتابنا « المشكلات الكبرى فى تاريخ الفاطميين » .

(٢) تاريخ مصر ، جـ ٢ ص ٣٣ .

وأهم من هذا كله أن الخليفة المستنصر عينه - على ما يقول النزارية - نائبا له على خراسان ، أو بالأحرى «حجة» له عليها ، وليس هذا بعيداً خصوصا بعد أن رحل ناصرى خسرو إلى إقليم بادخشان ، فى أواسط آسيا ، وترك إقليم خراسان لدعاتها المحليين ، كعبد الملك بن عطاش وغيره.

على أن بقاء الحسن الصباح عاما ونصف فى مصر ، ملتصقا برجال الدعوة ورجال الدولة معا ، أفاده فائدة تذكر ، فقد درس حالة الدولة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية ، وألمّ بعيوب هذه وتلك ، وعمل على تلافيها فى المستقبل . وبعبارة أخرى لا يبعد أن يكون الحسن قد أدرك وهو بمصر ، ما آلت إليه الخلافة الفاطمية من الضعف ، وأدرك أن قوتها أصبحت تتناسب تناسبا عكسيا مع نجاح الدعوة الإسماعيلية ، فإنها ، على الرغم من نجاح الدعوة فى عهد المستنصر ، كانت ضعيفة أمام القواد وغير القواد ، وكان الجيش الفاطمى والوزارة الفاطمية وغيرهما من كبريات الوظائف ، فى أيدى أعداء المذهب الإسماعيلى ، وأنه لما أدرك الحسن ذلك كله ، عول على تكوين مجتمع إسماعيلى صرف ، يناقض فى كثير من النواحى المجتمع الفاطمى ، وهو أن يجعل رجال السيف ورجال الدعوة الروحيين خاضعين لرئيسهم (له ثم لخلفائه من بعده) ، بحيث يعملون جميعا على نشر المذهب الإسماعيلى ، والفتك بمن يقف فى وجههم ، ولو أدت تلك السياسة الدموية الجريئة إلى قتل الخلفاء والسلاطين والوزراء ، بل إلى قلب العروش ذاتها ، أى كأن ما أدركه الحسن الصباح ، وهو بمصر ، من ضعف الدعوة أمام رجال الدولة ، قد أوحى له بتلك السياسة الخطيرة ، التى سار عليها بعد ذلك ، واتبعها خلفاؤه من بعده .

٤ — الحسن الصباح سفير المستنصر فى خراسان وفارس

بقى الحسن الصباح فى مصر ، منذ شهر صفر سنة ٤٧١هـ (١٠٧٨م) ، وأبحر من الإسكندرية فى رجب سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) ، وكان قصد الوزير بدر الجمالى أن ينفيه إلى بلاد المغرب . ولكن الظروف ساعدته ، فأفلت من انتقام هذا الوزير ، وألقت به الريح على سواحل الشام ، فنزل بثغر «عكا» ، وقصد منها إلى «حلب» فإلى «بغداد» . ثم اتجه من بغداد إلى «خوزستان» التى كانت تغص بالإسماعيلية فى ذلك الحين . ثم ألقى عصا التسيار فى «أصبهان» . وكان وصوله إليها فى ذى الحجة من سنة ٤٧٣هـ (مايو سنة ١٠٨١ م) . ثم اتجه إلى مدينة «يزد» فى جنوب فارس ، ثم إلى «كرمان» .

لم يستطع الحسن الصباح الاستقرار فى مكان ما ، فكان ولاة السلاجقة السنيون يطاردونه فى كل مكان ، ولذلك عاد من كرمان وقصد إلى أصبهان ، وبقى بها أربعة أشهر . وكان لا يفتأ ينشر الدعوة الإسماعيلية ، وينادى بإمامة الخليفة المستنصر . وقد صرح لأحد المقربين إليه بتصريحات تدل على مدى طموحه وجرأته ، وتدل فى الوقت نفسه على أنه وضع برنامجه الهدام الجرىء منذ سنة ٤٧٣ و ٤٧٤هـ ، فقد صرح الصباح للرئيس أبى الفضل اللُّبْنَانى أحد مشهورى النزارية ، برغبته فى قلب العرش السلجوقى ، وذلك بقتل السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك (١) . على أن الحسن اضطر إلى مغادرة أصفهان ، وقصد إلى خوزستان من جديد واستمر بها ثلاثة شهور

---

(١) المستوفى : تاريخ جوزيدة ، جـ ١ ص ٤٨٨ .

يدعو فيها للخليفة المستنصر ، ولم يقف نشاطه عند هذا الحد ، فقد اتجه عبر الصحراء ، من إقليم خوزستان إلى إقليم دامغان (١) . واستقر هناك ثلاث سنوات (٤٧٤ - ٤٧٧ هـ) .

ومما تمتاز به حياة الحسن فى هذا الدور ، أنه لم يكن داعيا عاديا بسيطا ، بل كان يقوم برياسة الدعوة المحلية فى فارس وخراسان ، فيرسل بالدعاة إلى أماكن يعينها لهم ، وكانت قلعة «آلموت» (٢) أهم منطقة بعث إليها بسيول دعاته ، وكذلك بلاد الديلم فى الجنوب الغربى من بحر قزوين . كما تمتاز حياته فى ذلك الدور بالخوف الدائم من عمال السلاجقة السنيين ، وعلى الأخص من أبى مسلم ، صاحب الرى ، وصهر نظام الملك (٣) . لذلك كان الحسن يلجأ إلى طرق الخداع والتستر . أنظره وقد أراد الذهاب من كورة دامغان (بين الرى ونيسابور) إلى مدينة قزوين - جنوبى بحر قزوين - يسلك طريقا معوجة ، فيتجه إلى مدينة « سارى » (٤) ، على البحر ، ومنها إلى « دوماوند » (٥) ، ومن دوماوند إلى قزوين ، وهى رحلة شاقة بالطبع ، وقد استقر فى قزوين حينا من الزمن ، وبذل جهوده فى نشر دعوة المستنصر فى إقليم آلموت .

---

(١) مدينة بين الرى ونيسابور ، وقيل : هى كورة بين الرى ونيسابور .

(٢) وتقع فى إقليم مازندران (طبرستان) ، بين سلاسل جبال البورز ، جنوبى بحر قزوين .

(٣) Defremery : Essai Sur l'Hist. des Ismaéleéns, p. 67

(٤) إحدى مدن طبرستان ، وتقع على مقربة من بحر قزوين

(٥) دوماوند : جبل وكورة بالقرب من الرى .

من هذا نرى أن الحسن الصباح كان يدعو للمستنصر لا لسواه، وذلك من سنة ٤٧٣ إلى سنة ٤٨٧ هـ. فلم يكن يدعو لنزار، كما توهم بعض[١]، لأن الحسن لو دعا فى حياة المستنصر لابنه نزار، لاعتبر ثائرا على هذا الخليفة، ولجلب على نفسه ثورة الإسماعيلية فى تلك البلاد النائية. والذى لا نشك فيه أن الحسن الصباح استمر على ولائه للخليفة المستنصر طيلة حياة هذا الخليفة (من سنة ٤٧٣ إلى ٤٨٧ هـ). يدل على ذلك قول العينى[٢]: «وكان الحسن الصباح قد قصده فى زى تاجر ... وخاطبه فى إقامة الدعوة له فى بلاد العجم، فعاد يدعو الناس إليه سرا، ثم أظهرها وملك القلاع». ويبين لنا القلقشندى[٣] أن الحسن دعا للمستنصر أولا، ثم لنزار ثانيا. فيقول: فقال الحسن المستنصر: من الإمام بعدك؟ فقال: ابنى نزار. فعاد ابن الصباح ... وهو يدعو إلى إمامه المستنصر وابنه نزار بعده.

بذلك نرى أن الحسن كان يدعو أولا للمستنصر لا لنزار. ومهما يكن من أمر فإن الحسن الصباح عاد إلى خراسان، ليدعو باسم إمام ظاهر - هو المستنصر - واستمر مخلصا فى دعواه هذه. على أن هذا لا يمنع أن يكون الحسن قد أخذ يمهد الأمور لنزار، وينشر بين أتباعه أنه خليفة المستنصر. بل إن التمهيد لنزار، يجب أن يكون من أهم ما يعنى الحسن به فى ذلك الوقت، حتى لا يفاجىء أشياعه بأمر نزار، خصوصا بعد أن أدرك نوايا بدر الجمالى نحو نزار والمستعلى.

---

(١) Defremery : Essai sur l'Hist. des Ismaéleéns, p. 67

(٢) عقد الجمان (مخطوط)، ج ٢٠ ورقة ٤٧٣.

(٣) صبح الأعشى، ج ١٣ ص ٢٣٧.

وقد زاد بلوشيه [١] هذا الموضوع إيضاحا فقال : ويجب ألا ننسى بأن الحسن كان يعتبر نفسه داعيا للخليفة الفاطمى بمصر ـ المستنصر بالله أبى تميم معد ـ وقد بقى طول حياة هذا الخليفة على الولاء له ، وما كان الحسن ينتظر سوى إشارة واحدة منه ، حتى يعلن ما أعلنه أنوشتكين الدرزى ، وحمزه بن على ، من تأليه الحاكم [٢] ، لكن هذه الإشارة لم تصله بعد ، لأن المستنصر لم يكن لديه شجاعة جده الحاكم .

وبهذا كان الحسن الصباح يعتبر الدعوة للمستنصر ضربا من ضروب التقوى والورع ، وينادى بالإمام الظاهر ، لا الإمام المستور ، وهكذا ، بعد أن هاجر الحسن إلى بلاد إمامه (مصر) ، وتلقى منه كيفية الدعوة لإمام زمانه ، عاد ودعا الناس ، أول دعوة ، إلى تعيين إمام صادق قائم فى كل زمان ، وتمييز الفرقة الناجية دون سائر الفرق بهذه النكتة ، أى أن لهم إماما وليس لغيرهم إمام »[٣]. وكل هذه الحقائق تدل على أن الحسن لم يدع لغير المستنصر قبل سنة ٤٨٧ هـ .

والواقع أن الحسن الصباح كان يهمه فى هذا الدور (٤٧٣ — ٤٨٧ هـ = ١٠٨٠ — ١٠٩٤ م) ، فى حياة المستنصر ، أن ينجز هذه الأمور الثلاثة :

أولا : كان عليه أن يروج الدعوة الإسماعيلية ، باسم المستنصر أولا ، ثم نزار ثانيا ، وقد نجح الحسن فى ذلك نجاحا ظهر أثره بعد ، فقد

---

(١) Le Missianisme (Paris, 1901), p. 3

(٢) وكانا من أشهر دعائم الدعوة الدرزية فى عهد الحاكم .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ ٢ ص ٢٩ (على هامش ابن حزم) .

استغل الانتماء إلى المستنصر ، الذى عينه «حجة» على خراسان ، ووضع نفسه على رأس جماعة من المتفانين له ، وللمذهب الإسماعيلى ، فأصبح فى مركز الأمراء والسلاطين ، بعد قليل من الزمان . وليس من شك فى أن الحسن كان يمهد الأمور ، فى هذا الدور ، للثورة على رجال الحكومة الفاطمية النفعيين ، حتى إذا مامات المستنصر وجدالأمور ممهدة له، ليدعو إلى نزار .

ثانياً : وكان عليه أن يوجد حوله زعماء آخرين يخلصون له ، ويتفانون فى الدفاع عنه وعن مذهبه ، وقد نجح فى ذلك نجاحا يحسد عليه ، إذ ضم إليه جماعة من خيرة رجال ملكشاه وولاته . فكان هؤلاء وغيرهم أسلحة فتاكة فى يده . ومن هؤلاء الأنصـــار الزعماء أمير قلعة «كيردكوه» (١) . وكان من ولاة السلطان ملكشاه ، ويدعى «المظفر» ، وبفضل هذا الزعيم استطاع الحسن أن ينشر الدعوة الإسماعيلية بنجاح كبير فى بلاد الرى . كما انضم إلى الحسن الصباح زعيم آخر هو الأمير الحسين القينى ، حاكم قلعة «طورشيز» ، إحدى قلاع قوهستان . وانضم إلى الحسن كثيرون غير هؤلاء ، فقوى الحسن بهم (٢) .

ثالثاً : وكذلك كان على الحسن أن يعمل على امتلاك القلاع والحصون القوية ، كى يستعين بها فى تقوية نظامه الجديد . وقد نجح فى الاستيلاء على الكثير منها ، بالخداع تارة ، وبالقوة أخرى ، وسن بعمله

---

(١) قلعة حصينة بين الرى ونيسابور ، وكانت من أشهر قلاع النزارية .

(٢) المستوفى : تاريخ جوزيده ، ج ١ ص ٤٩٠ .

هذا سنة انتهجها خلفاؤه من رؤساء الدعوة النزارية . وهكذا استمر الحسن الصباح عشر سنوات كاملة (٤٧٣ — ٤٨٣ هـ) ينظم خلالها الدعوة ، ويرسل الدعاة فى جميع أنحاء بلاد فارس ، إلى أن استقر بقلعة حصينة ، اتخذها مركزا رئيسيا لنشاطه ، أو قل : عاصمة لملكه ، وتلك هى «قلعة آلموت» ، فأصبحت سنة الإسماعيلية الاعتصام بالجبال ، وتكوين المجتمعات الإسماعيلية الخالصة فى تلك الأماكن المنعزلة، ولاغرو فإنه من السهل على من يسكن تلك القلاع الجبلية المنيعة ، أن ينشر دعوته ومبادئه فى أمان واطمئنان ، وأن ينقض على أعدائه من تلك الأوكار المحصنة البعيدة المنال. يوضح صحة هذا تاريخ الإسماعيلية النزارية ، الحافل بالاغتيالات المنظمة .

وفى الحق أن قوة الحسن الصباح بدأت فى الازدياد منذ امتلاكه قلعة آلموت سنة ٤٨٣ هـ ، التى اتخذها قاعدة لأعماله. ونهج أنصاره نهجه فى احتلال القلاع المنيعة . يقول ابن ميسر[1] : « وكانت دعوة الإسماعيلية ببلاد ديلمان[2] والجبل من قديم ، فأقام ـ الحسن ـ بينهم يبث الدعوة ، حتى شاعت ، فأخذ يجمع الأسلحة والعدد سراً ، وأوعد أصحابه فى رجب سنة ثلاث وثمانين فى ليلة منها . . . كان السلطان حينئذ ملكشاه بن ألب أرسلان ، فأخذ قلعة آلموت . . . فاجتمع الباطنية بأصفهان وضواحيها ، مع رئيس دعاتهم ، أحمد بن عبد الملك بن عطاش ، فاستولوا على قلعتين

---

(١) تاريخ مصر ، ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) ديلمان : أى بلاد الديلم ، جنوبى بحر قزوين . أما بلاد الجبل فيقصد بها قوهستان التى تقع فيها مدينة أصبهان .

عظيمتين ، إحداهما قلعة « شاه دز » ، والأخرى قلعة « خان » ، وهما على « جبل أصبهان » . وقد اتخذ الزعيم الإسماعيلى الثانى ، أحمد بن عبد الملك ، من قلعة « شاه دز » قاعدة أساسية ثانية .

وبهذا نرى أن دعوة الخليفة المستنصر فى فارس وخراسان ، كانت موكولة بعد عودة الحسن الصباح من مصر ، إلى أحمد بن عبد الملك بن عطاش ، وإلى الحسن الصباح نفسه ، هذا فى آلموت (بطبرستان) وذلك فى « شاه دز » بالقرب من أصفهان ، عاصمة السلاجقة فى ذلك الحين . ولا ندرى على وجه التحقيق : أى الرجلين كان يعترف لزميله بالزعامة . ويظهر أن رياسة الدعوة كانت موضوعة ـ رسميا فى يد الحسن الصباح ، الذى كان يولى أحمد بن عبد الملك بن عطاش شيئا غير قليل من الاحترام . ولا غرو فقد كان أحمد هذا ابن أستاذه عبد الملك بن عطاش ، الذى رباه ، وأنشأه على حب المذهب الإسماعيلى ، وسهل له طريق الذهاب إلى مصر .

ومهما يكن من شىء فقد كان الحسن ، الصباح القلب النابض لدعوة المستنصر فى المشرق ، وقد استطاع فى عهد هذا الخليفة ، أن يضع أسسا متينة البناء لجماعة الإسماعيلية هناك . وسن لأشياعه سنة الاستيطان فى مجتمعات إسماعيلية خالصة ، بعيدة عن عنت السنيين ومنافستهم ، فكان استيلاؤه على قلعة آلموت فى سنة ٤٨٣ هـ ، شرارة اندلعت بسببها نيران الثورة الإسماعيلية فى كل مكان ، فاندفع أنصار الحسن يقلدونه فى الاستيلاء على القلاع الجبلية المتينة ، واتخذوها أوكارا ينقضون منها على خصومهم الدينيين والسياسيين ، فى كل من فارس وخراسان وبلاد الشام .